يوميـات قلعـة المنـفـى

عبد اللطيف اللعبي

اكتب ، اكتب ، لن اتوقف أبدا . هذه الليلة وكل الليالي القادمة

ها انذا وجها لوجه مع نفسي ، دقـت ساعـة المحاسبـة . خلعـت بزتـي . لم أعد الماسح لفضاء محدد ، لجولة منتظمة . لم أعد اخضع لبؤس الاوامر . تركت رقمي خلف الباب .. الآن ، انتهيت من الشرب ، الاكل ، الحاجيات ، انتهيت من الحديث الذي يسمي الاشياء بمسمياتها المستهلكـة . أدخـن ، سجائر لا منتهية ، دخانها يخرج من الرئتين على شكل شظايا سلاسل ، دوائر مرة من الرفض، بدأ ليل السجن يبتلع أضواء النهار الاصطناعية. نجوم شمعتاء تغمـر قبـة الرؤى .

اكـتـب

عندما اتوقف ، يتحول صوتي عن أصله ، كأن نغمات خفية تتسلق أوتاره ، مدفوعة باعاصير غريبة ، قادمة من كل المناطق التي تتقابل فيهـا الحيـاة والموت ، يتناظران ويترابقان ، وحشين بألوان متجددة ، كل منهما يتجمع يستعد للوثوب ، لتدمير المبدأ الذي يؤسس الآخـر .

اكـتـب

لا يمكن أن أحيا دون ان انفصل عن نفسي ، دون ان اجتث نقـط القطيعـة والالتحام من ذاتي ، حيث اشعر اكثر بالتمزق والصدمة ، حيث انشطر لاعيش في فضاءات لا تحصى : الارض ، الجذور ، عنفوان الاشجار، الفوران البارز في وجـه الشمـس .

اكـتـب

عندما تتلاشى اللامبالاة ، ويحدثني كل شيء عندما تهتاج ذاكرتي وتتقدم أمواجها حتى تتكسر على شاطيء عيني .

امزق النسيان وأتجسس مسلحا كي احصد بعون هوادة ما يلحق بي لحق بي .
تمهل ايها الانفعال ، تمهل يا انكساري مما ينفلت ، ايا جموح الوجود تمهل .

اكتب

عندما يستحيل علي أن اكتفي بمجرد التفكير فيك . ويدي من غيابك لم تعد تطيق الاحتراق عندما تراودني الذكريات : نفسك المنتظم أو اللاهث ، رائحة شعرك ، لا نهائية كتفك ، صمتك ذاك الذي احرزه وهو يصب بنوءدة في ذاتي كل تلون حساسيتك . تحركين يدا ، تجمعين أو تفرقين ساقيك ، ترجف أجفانك ، واعلم علم اليقين الرعشة الخفية التي تخترقك ، الوقت الذي يضايقك فيه الضوء ، اللحظة التي تتشممين فيها النسيم وهو يولد ، الصورة ، نعم الصورة السريعة التي وشوشت قزحية عينيك . أسأل نفسي : كل هذه السعادة ، هل هذا ممكن ؟ ها قشعريرة تسري في ساعدك الايسر ثم تنغمرين من جديد في اللجة المتبادلة التي تهدهدنا .
تمهل أيها الحنان . تمهل يا نهم اليقين ، أيا حلمي المدمر للبكم تمهل .
اكتب ، اكتب . لن أتوقف أبدا .
عشر سنوات . ما معنى عشر سنوات في معادلة الحياة ؟ كان الوقت فجرا ، وأنا في جوف حرارتك ، متى نمت ؟ متى دخلت ؟ ثم جن الجرس . كادوا أن يحطموا الباب بقبضاتهم . تأكدنا في الحين . قفزت من السرير ، اطللت من النافذة ، وبحذر ازحت قليلا الستار . كانت السيارة السوداء في الاسفل ، واقفة في الشارع ، مطفأة الانوار . لا سبيل للشك . ثم شرعنا في التهيؤ ، كاننا مقبلين على سفر طويل . كان الجرس يجن . كادوا أن يحطموا الباب بقبضاتهم .

اكتب

ما من حل أمامي سوى أن أكتب . فكرت فوق الاحتمال في تلك الرغبة التي تحاصرني ، منذ مدة قديمة ، والتي تجعل الواقع الذي يتراءى لي هو دائما في خدمة واقع آخر قادم ، تلك الرغبة التي تجعل الحاضر مشروعا مستمرا ، مجالا أراكم فيه المادة ، ادوات صرح لا أعرف عنه شيئا في البدء ، ولا استطيع ان اتصوره الا نبضا لعضو جديد يسكنني ، ينمو بايلام في داخلي وينظم وظيفته شيئا فشيئا . كيف اذن اسمي هذا التجسس اليقظ الاهوس للواقع ؟ حلقته هي هذا المسرح العريض لنضالاتنا ، آلامنا ، ابادتنا وانبعاثنا ، لكل حيوية تطوى تحت نير الصمت ، كل الصرخات السرية ، لكل الذاكرات المقطوعة

الـرأس .
فكرت فوق الاحتمال في تلك الرغبة التي تحاصرني . ولكن تمهل يا صحوي ، أيا شراستي ضد ظلمات العجز تمهلي .
اكـتـب

ذلك لصباح القارس من صباحات يناير . يومي الاول في المنفى . كنت ممددا على لوح . قيدوا الرجلين واليدين . خرقة كانت تغطي وجهي كاملا، والماء يندلق ، يخترق الملابس الداخلية ، ينصب في الانف ، يستحيل شربه .
ـ صب بكمية قليلة ، كان أحدهم يخاطب الآخـر
ـ وانت ، اضبط رأسه لصيقا باللوح ، كان الصوت نفسه يوشوش .
ـ صب مرة أخرى ، زد قليلا ، كان الصوت يحرض .
ـ يكفي الآن ، هكذا كان الصوت ينهي كلامه
وكأننا أمام برهنة حول مائدة تشريح ، « الضمير المهني » ، الحرص على العمل « النقي » ، المتقن .
لم أكن أراهم . فقط ، كنت اسمع الاصوات تأتيني من مسافات متباعدة ، ووقع الاحذية وهي تتجرجر على الارض . كانت الايدى اللزجة تضغط على رأسي فوق اللوح ، اختنق ببطء ، أفكر بسرعة المقاومة والموت المترقب . هكذا كنت . ولكن أي صورة ، أي وميض لفكرة هذا الفيض يستطيع أن يعكس اتساع هذه اللحظة ان كان خيط الحياة يمتد ، يرق ، كحبل غسيل شد من طرفيه بعنف ، حتى وصل الحد الذي تبدأ فيه الخيوط بالتفسخ واحدا واحدا .
اكتب ، لن اتوقف
في كل لحظة علي ان أغالب هذ الضيق ، هذا الاحساس باللاجدوى الذي يشلني أحيانا . هل يمكن ان نكتب ، نكتفي بالكتابة لخلخلة جبروت حالة الحصار في الوقت الذي يصبح فيه كل طريق فخا ، ومراكز التعذيب تعلن عن اكتظاظها ، وشعب بأكمله يفرغ يوميا من دمه . تعرض البلاد للمزاد العلني . مجزأة بأحجام مختلفة الى قطع الماخور ، قواعد الاغتيال ، لحم ـ شحم للآلات أيدي العبيـد .
وما عساني أن أقول مما لا يمكن لرجل لشارع ، لآخر مراهق ملقى على رصيف البطالة والمتاه أن يحركوه ويتبينوه كالوجه الادكن للتعاسة الاليفة : انتظار ، عصي ، احتقار ، رصاص ، ضغينة صلـدة .
ولكن تمهل يا هول الشك . تمهل يا غثياني ، ايا بركاني المتطـرف .

نمهــل .

أكــتــب

هذا الليل امامي ، جديد بصمته ، كلمات تنبت ، تنتظم ثم تحضر لمعانقة نفسي ، تهيكله صوتا . ما أحلى ان ادخــن .

في البعيد يصفر قطار . يقترب ، سرب حباحب لا مرئية . حرارة في الحافلات . البار مزدحم بالمستهلكين . مسافرون يغفون في أحلامهم المرنجة .

قطار آخر ينفصل عن القطار الاول ، يعبر سهول الاندلس ، يعيد لي غرناطة . نحن معا في غرناطة . كل شيء كان عجيبا . نتكيء على مشرب لتناول كاس صغير من الخيريز ، نشابك أيدينا ، نتهجى أسماء الازقة ، نتأمل الخطاطين ، حفظة ميراث الحمراء ، وهم يشتغلون في دكاكينهم ، نسأل المارة عن طريقنا ، هؤلاء الذين ينقل لك مجرد الحوار البسيط معهم رعشة الاخوة ، ننام ، نصحو بنفس درجة الامتلاء . غرناطة التي كان فيها حبنا قويا الى درجة التمزق .

في البعيد يصفر قطار ، يخترقني ، ينفصل عن نفق جسدي . ومن جديد يخيم الصمت الذي لا يقطعه سوى نباح خجول لكلب لا شك انه انزعج في غفوته .

أكــتــب

يوما بيوم الملزمة . معتقل ! ما معنى ذلك ؟ زنزانة لها تمام صفات الزنزانة : متران ونصف (طولها) متر ونصف (عرضها) . انه تكعيب قانوني على ما يبدو . جدران مجيرة بشحة ، زجاجة ترشح ببؤس واطانها الخمسة والعشرين مدفونة في الجدار ، محفوظة في زجاج (منع) سميك . مرحاض تقليدي وفوقه صنبور من النحاس . النافذة الصغيرة القانونية وبها قضبان من النوع الجيد ، لا نقل عنها قانونية في سمكها المحترم . رف صغير (يا للبذخ !) يمكــن « للنزيل » ان يرتب عليه حوائجه . قبالتنا الباب الرمادية بفتحتها المغلقة بواسطة نظام اغلاق حاذق يتكون من صفيحة معدنية ذات مزلقة هي نفسها متقنة بنظام اغلاق آخر مركب من خيط حديدي يمر بحلقة عند منتصف الصفيحة ليجمدها في الاسفل . لنا في الاخير مصطبة على شكل بناء مطلي بالاسمنت يحتل بفخامة نصف الفضاء ويستقبل الفراش . هنا يعتلي للنزيل عرشــه ، ينام ، يحلم بكوابيسه ، وفي بعض الحالات يقرر الانتحار بعدما يتيه في سرداب من الهذيان والاستدلالات الغامضة . نحن طبعا في « السجن المركزي » جوهرة العقد بين معتقلات بلاد الشمس

أكــتــب

يوما بيوم الملزمة . ونقيضها يوما بيوم . تنتعش السماء الخيالية الخرساء

بأفواج سحاب يقظ مكد ، تستعرض ملحمة الارض ، والشمس تقفز فوق الاسوار ، تطيح بالغبش ، تطمئن على الربيع الوشيك ، يتحرك الهواء مفعما بالبشارات المتداخلة ، والعصافير التي لا يمسها القمح تنشر قرابين ألوانها ، تنشيء ، تتناسل ، تتعلم كيف تطير ، توجه صوب الاعين مرايا مشتعلة تنعكس عليها مسيرة الحياة . واذ يمتليء الحلم ، يتحول رؤيا عضوية لما يقضي به الصحو . نعم ، المستقبل أصبح أكيدا ، انه يشع ، يشبع الحاضر بمادينه . يوما بيوم تلك الآية المتجلية في العيش ، التحول ، الحب . الامل القوي ، معرفة السعادة ، الغاء العزلة ، النبض بايقاع قلب العالم ، كل ذلك داخل نفس القلعة المنصوبة للموت البطيء ، الانحطاط ، الخنوع الجماعي ، الصلافة ، الحزن المتوحش ، المنفى الانساني . علينا اذن لم الاشلاء المبعثرة من دائرة لأخرى ، علينا التوجه نحو هذا الغزو الجديد لاعمالنا .

اكتب ، اكتب ، لن أتوقف

رحلة تحولنا . من شاهدي الآخر لمستازمات العشق ؟ كيف أفرق في هذا التراث المشترك بين القرابين الفاتنة التي حملتها لي والهدايا الجموحة التي وضعتها بين يديك ؟ ما الذي يؤسس العشق ، يجدده باستمرار ؟ ما الذي يحيله فجعا ، سورا من العمى والانانية ؟ ما الذي يكسره عندما يجري ككل غدران الوجود اللاواعية ، وما الذي يحييه من الرماد والجلود الهرمة للرجال والنساء الغابرين؟ كثيرة هي مناطق الانسان التي تحتاج للبعث ، كم من نوافذ عليه ان يفتحها في قلبه ، كم من قدرات لا زالت لم تنعتق من الكهف الجليدي .
ولكن الاصعب من كل ذلك هو القدرة على الحيلولة دون زرع أوهام جديدة في الوقت نفسه الذي نتخلص فيه من أوهامنا القديمة ، لان العشق قارة هشة، ما زالت في طور التكوين ، تضيئها شمسها الخاصة ، قارة نخطو فيها خطواتنا الاولى . واذا كنا نعرف جيدا الرحلة التي قادتنا اليها ، يبقى لنا أن نكتشف الكثير ، ورحلات أخرى تنتظر .

اكتب

هل المحنة وحدها هي التي صنعت منا ما نحن اصبحنا عليه ، في وشيجة الواحد منا للآخر ، علائقنا بالآخرين ؟ قبل ذلك كانت المعرفة والالم ، اللعنة وعقم الدوس . كنا نركن للصمت والتقوقع كلما صعب علينا الفهم ، كنا نحتفل منتشين عندما كان خيط من النور يبشرنا بمحتوى آخر للحنان ، يعضد حيرتنا يفتح لنا الطريق لمرحلة لم نعبرها . ثم بدأنا نتكلم بقدر ما كان العالم يبدو من حولنا أكثر واقعية ، بقدر ما كان الشعر يؤنسنا ، بقدر ما كان شعبنا ، بفضل نضالاته وتضحياته يمنحنا وطنا قابلا للحياة ، بقدر ما كنا نستيقظ

بدورنا للعطاء . كل هذه الرحلة التي اكتشفنا في نهايتها أن ايدينا تتشابه بشكل خارق ، حيث اكتشفنا الاخـوة .

اكـتـب

من جديد هذا الليل الذي لا قياس له . فجأة تنبثق طائرة من جوف الصمت . ينفجر دويها كارغونات جوية معطلة .. لا شك انها تتهيأ للنزول ، لمـاذا اشعر بكل هذه الحدة ؟ وجسمي كصندوق مكهرب من الاصداء . هل ترين ؟ أدنى شيء يفجر في خلدي حضورك ، ما ليس مجرد ذكرى عابرة بل تجربة معيشة تزلزلني وانا على فراشي الحقير ، تضغط على حنجرتي ، تدفعني لترك القلم . وبآلية اشعل سيجارة ثم ارحل في هذا الفضاء المتقاطع الذي يتحدى الزمن حيث نسير ، مفعمين ، جنبا الى جنب .

اكـتـب

هل اعترف ؟ انني لا أملك الا ثقة نسبية في الكلمات ، حتى عندما أتلمس جميع أوجه معانيها ثم أتلفظها بصوت مرتفع لاتيقن من عدم تصـدع رنتهـا ، انزلاقها في تراكيب الحذلقة ، عندما اركبها وانظمها ، اجدني اعيد قراءتها وأعيد حتى أتأكد مرة أخرى من أن ما كتبته ليس معتما ولا غريبا عن الاعماق المشتركة لعذاباتنا وآمالنا . بهذا الحجم تأخذ الكتابة مسؤوليتها . وبمجرد ما اتحملها (آه نعم اتحملها !) يستحيل على أن أتهرب أو ان أرضى بالجزئيات . يجب أن اصبح قادرا على الدفاع عن كل كلمة ، كل جملة ، واذا امكن يجب ان اعمل على ان تستقل كلماتي بالدفاع عن نفسها حين تتوجه الى حساسية كل واحد منا لتتفاعل معها مثل تلك الفرقعة الاليفة للمطر الذي لا تستغني عنه الارض . مثل تلك الحشود من الورود الغريبة التي يجهض غيابها الربيع .

ولكن تمهل يا عنادي ، ايا شيطان الشعر العقلاني تمهل .

اكتب ، اكتب ، لا يمكن ان أتوقف . هذه الليلة وكل الليالي القادمة .

ليلة أخرى لا أملك فيها سوى الكتابة . أصطدم بهذا الصمت الذي يتحداني بلغة المنفى . انتصب بكاملي للغور في صوت الليل المخيم على السجـون . انصت ، وشيئا فشيئا النقط تناغمه ، أعبر مداه ، استقبل اصداءه الدامية وكأنها تأتيني معكوسة . اطارد الصمت ، انتزع منه الضجة العانية التـي تحطم حواجزه ثم تنهشم بحوي أخاذ قبل ان تتبعثر في ثنايا الليل .
يأتيني الوطن ، نشيدا فضائيا ينهض من عمق التاريخ : مسبكا من التوهج والعرق ، عضلات مزينة وهو يشق سندان المادة المتمردة ، بذور ، حصاد ، خبز وزيتون أسود ، طفاوة الشاي المحرق ، الذي ينتقل كأسه من يد لاخرى ،

مزمير وطبول وهي تهز الازقة في مواكب مبرقشة ، ضحكات وزجرجات الاطفال المنتشين بالموسيقى والعطور ، عراقيب حمر لراقصات وهن يعتلين موائد مستديرة ، يوقعن بالارجل ، والنهود تهتز كرمان ناضج بالنضارة ، جنون آلات القرع ، موسيقيون هائمون ، يذبحون الكمنجات الساخنة ، يصعقون الطبلات ، يبقرون العيدان البدينة ، المشتعلة بكل زخارفها . صمت طويل ثم يعود لي الوطن متلوف الوجه ، مشوها ، صرخات هنا وهناك ، صرخات عراك ، افتضاض ، اغتيال ، صرخات اطفال عيونهم زائغة وهم يجلدون ليتعلموا الصمت ، صرخات الجنائز والنائحات يندبن ، ينتفن شعرهن ، يضربن الارض بمناديلهن ، يلطمن افخاذهن ، يرطمن رؤوسهن على الحيطان، صرخات رضعاء مهجورين في البرازيك القصديرية ، في حلك كل انواع النقص ، صرخات ملتهبة بالحمى وسوء التغذية ، صرخات نساء يضربهن حتى الموت رجال سكارى ويائسون ، انات وحشرجات هؤلاء النساء المروعات وهن يقبلن ارجل المعتدين عليهن ، يطلبن الرأفة ، لوجه الله ، لوجه الاطفال ، لوجه البؤس المشترك ، صرخات مارس محمولة بريح بغض المتمردين ، صرخات التلاميذ المصروعين في عز ظهيرة الاستقلالات المزورة ، مصفحات كالديناصورات في مواجهة أحلام صغيرة وهي تهجس في توالد الايام ، مد وجزر الشمس ، ابتسامة الرجال ، صرخات رفاقي وهم بين أيدي الجلادين : تعليق ، كهرباء ، خنق ، صرخات اذ تتحول الصرخة لغة كونية للمقاومة ، انشودة ملحمية للفجيعة الانسانية ، للأمل . ايا رفاقي الوديعين ، لحمي يهذي ، وقلبي مجنون بحبه الكبير ، عيونكم التي لا تنسى وحنانكم الذي لا يقهر .

اكتب

في منتصف الطريق ، اكتب واقفا ، عبر الملزمة والجروح .
تمر السنوات
تركض
والعقارب المقاريض تجز موانيء الساعات
تسحق يد الغول
مترهلا فوق سدته
هذا شعبي يسير
وانا أحيا
ثائرا .

يناير 1976